ثورة ابن الصخري في الشرق الجزائري

Ben Sakhri revolution in the east of Algeria

عطية محمد*

جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر Attiam325@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/09/30 تاريخ القبول: 2021/10/27 تاريخ: النشر: 2022/01/25

الملخص:

يهدف هذا البحث لتسليط الضوء على إحدى الثورات الكبرى التي قامت ضد السلطة العثمانية بالجزائر خلال القرن السابع عشر وشملت مناطق واسعة من بايليك الشرق الأمر الذي يطرح تساؤلات عدة حول الظروف المفضية لقيام هذه الثورة العارمة وفي هذا الوقت بالذات، وكذا أسبابها ومجرياتها ونتائجها، خاصة و أن قبائل بايلييك الشرق انتهجت سياسة معادية للعثمانيين منذ البداية مما أدى إلى تأخر ضم هذا الإقليم، في حين ظلت هذه القبائل تتمتع بنوع من الاستقلالية على عكس قبائل الأقاليم الأخرى، وبقيت مناطق منه مستعصية عليهم. وكشفت هذه الثورة هشاشة الحكم العثماني بالجزائر من خلال تغير نظام الحكم وما ينتج عنه من توتر العلاقة بين الباشوات و شيوخ القبائل والعلماء. إذ ظلت هذه العلاقة تتحكم بنسبة كبيرة في استقرار البايلييك.

الكلمات المفتاحية: الجزائر؛ الثورة؛ ابن الصخري، العثمانيون؛ البايليك.

* **المؤلف المرسل**

Abstract:

This research studies a revolution against the ottoman government in Algeria during the seventeenth (17 th) century which included vast areas in ‘‘ Baileek east’’, the fact that lets us ask lot of questions about the different reasons that leaded to that revolution on that precise period. And also how it occurred and what their results were. Especially that bayleek east tribes followed an anti – ottoman policy from the beginning the thing that leaded to the annescation of this region was delayed while those tribes of other territories. And parts of it remained intractable for them. And that revolution revealed the fragility of ottoman rule in Algeria through the change of the government system and all what resulted from it of the relationship between the Bachas and the tribal sheikhs and scholars.As that relationship remained controlling a large percentage of ‘’Babilic’’ stability.

Keyword: Algeria, revolution, Ben Sakhri, Ottomans, bayleek.

مقدمة:

لم يكن إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية بالأمر الهين كما يتصوره الكثيرون، فالعثمانيون قد وجدوا معارضة كبيرة في بادئ الأمر عندما استقروا بمدينة الجزائر، هذه المعارضة تزعمتها القوى المحلية أمثال أمراء قلعة بني عباس وأمراء الدولة الزيانية وغيرهم ممن يتمتعون بالنفوذ، ولعل هذا ما أدى بهم إلى تقوية وجودهم وعدم الاستخفاف بالأمور التي قد تؤدي إلى اهتزاز مكانتهم في أي وقت. بيد أنّ الأوضاع لم تلبث كذلك؛ لاسيما مع تغير نظام الحكم من مرحلة لمرحلة ومن حاكم لآخر فالسياسة التي انتهجوها كانت تقوم أساسا على التقرب من شيوخ القبائل والأعيان والعلماء، والعلاقة بين الطرفين ليست على قدر واحد من التمثيل. وعلى الرغم من أن القرن السابع عشر قد بلغت فيه البحرية الجزائرية أوجها "العصر الذهبي"، من حيث القوة ووفرة الغنائم – ولم يكن ذلك ليدعو إلى التخفيف من الضرائب– ما يفسر تلك العناية التي أولاها الحكام

بالأسطول، غير أن ذلك الاهتمام لم يكن بالدرجة نفسها فيما يخص الناحية الاجتماعية للسكان، الأمر الذي أدى إلى تدهور الأوضاع شيئا فشيئا، وهكذا ظهرت أصوات مناوئة للعثمانيين استقطبت الكثير من فئات المجتمع. لذا عندما حاولت السلطة العثمانية بمدينة الجزائر إرغام بعضهم على الدخول تحت إمرتها وما ينجم عن ذلك من فقدان للكثير من الامتيازات ثار بعضهم وتمرد على سلطتها. ومن هذا المنطلق سنحاول في بحثنا هذا معالجة الإشكالية التالية: ما هي الظروف والعوامل التي أدت إلى قيام ثورة ابن الصخري سنة 1638م في الشرق الجزائري؟ وإلى أي مدى انتشرت في أنحاء البلاد؟ وما هي أبرز النتائج المترتبة عنها؟

1. ظروف اندلاع الثورة:

قبل الخوض في الموضوع وجدنا اختلافا في كتابة الاسم حيث ورد صاحب الثورة في مؤلفات المؤرخ أبو القاسم سعد الله ونظنه قد اعتمد في ذلك على مخطوط كعبة الطائفين، وهو مخطوط عاصر أحداث هذه الثورة، باسم ابن الصخري، أما المؤرخة جميلة معاشي فقد أوردته في كتابها الأسر المحلية في بايليك الشرق باسم ابن السخري، حسب ما هو وارد في الوثيقة التي اعتمد عليها الفرنسي شارل فيرو. على أننا سنعتمد التسمية الأولى في بحثنا هذا.

ومهما يكن من أمر الاختلاف فإن اندلاع ثورة ابن الصخري؛ التي لم تكن الوحيدة ضد الأتراك ولا الأولى كذلك، كان نتيجة لما ساد الجزائر من اضطرابات، ما يوحي بأن التواجد العثماني بالجزائر كان مهددا بالخطر، ولعل أبرز الأحداث التي جرت في تلك الفترة نذكر منها:

1.1 الثورة الانكشارية:

منذ أن اعتلى الباشاوات الحكم سنة 1587م، بدا عجزهم واضحا في تسيير الايالة على الرغم من كثرة الغنائم البحرية، الأمر الذي أثر على الحكم وفسح المجال لظهور الصراعات الداخلية، والتي من بينها ذلك الصراع الخفي بين طائفتي الرياس و الانكشارية[1]، حيث أفضى بحلول سنة 1629م إلى إعلان الثورة ضد "الباشا حسين" في ولايته الثانية (1626-

1634م)، وهو الذي ينحدر من صف رياس البحر بعد أن عجز وأعضاء حكومته(الديوان) عن دفع مرتبات الجند[2].

2.1 ثورة خالد بن نصر زعيم الحنانشة:

لم نعثر على تاريخ محدد لهذه الثورة، وما هو مؤكد أنها قامت في بايليك الشرق الجزائري أثناء العقد الرابع من القرن السابع عشر، وقد بلغت من القوة مبلغا عظيما، إذ تقوى المدعو "خالد بن نصر" بأحد المجندين سابقا في قوات البايليك وهو الشيخ "عبد الملك السناني"، الذي نادى في الناس واجتمع له الكثير كل يحمل إليه الأموال والمواشي ويعلن بين يده الطاعة والولاء. من جراء ما ذاع بين الناس أنه رجل له كرامات. لذا استطاع أنْ يجند جموعا كثيرة لحرب العثمانيين[3].

3.1 ثورة الكراغلة:

تعود أسبابها إلى الأسباب نفسها التي أدت إلى قيام ثورة الانكشارية قبل أربع سنوات، ذلك أنّ الصراع انتقل إلى الديوان؛ عندما أقدم أعضاؤه على إصدار قرار خطير يتمثل في الاستيلاء على خزينة الدولة وإسناد تصريف جريات الجند(مرتبات) للباشاوات، ومافتئ هؤلاء يظهرون عجزهم عن دفع هذه الأموال للجنود، الأمر الذي ترتب عنه اندلا ع ثورة تزعمها عناصر الكراغلة ضد الباشاوات إذ تم محاصرة الجنود الانكشاريين بقصبة مدينة الجزائر سنة 1633م[4]. يذكر أنّ الكراغلة لم يثبتوا في قتال الانكشارية وسرعان ما دارت الدائرة عليهم، إذ هُزموا وحاولوا الانسحاب وفي تلك الأثناء انفجرت بعض مخازن البارود بالمدينة أودت بحياة الكثيرين، حيث قدر عددهم بحوالي 600 شخص أكثرهم من الكراغلة، وهدمت مئات المنازل[5].

4.1 تمكن علي بتشين من الاستيلاء على قيادة الأسطول الجزائري في ظل الأوضاع السابقة، وهو من أشهر رياس البحر الذين مروا على قيادة الأسطول، إذ يُشهد له بالفطنة وشدة المراس، كما أنّه كان من أبرز أعضاء ديوان الجزائر، أما عن ممتلكاته فقد كان يملك ثروة طائلة من بينها معتقلات للأسرى المسيحيين، سمحت له هذه الثروة في التحكم في جزء كبير من تجارة الجزائر الخارجية[6].

5.1 تغير سدة الحكم في الجزائر فبعد عزل يوسف باشا(1634-1637م)، عين مكانه علي باشا في السنة نفسها، و يقال أن هذا الباشا كان ضعيفا وليس لديه أي كلمة أو سلطة يمكن أن تُظهر قوته خاصة على قائد الأسطول علي بتشين[7]. مما يوحي بعدم استقرار الأوضاع، إذ تعاقب على الحكم في العقد الرابع لوحده أربعة باشاوات هم حسين باشا للمرة الثانية(1626-1634م) ويليه يوسف باشا(1634-1637م) ومن بعده علي باشا(1637-1639م) ثم الشيخ حسن باشا(1639-1642م)[8].

6.1- تعرض الأسطول الجزائري لنكبة في موقعة فالونا سنة 1638م، عندما كان متوجها نحو الأناضول للالتحاق بالأسطول العثماني تنفيذا لأمر السلطان الذي حثهم فيه على ضرورة الانضمام للأسطول الهمايوني الذي كان متوجها هو الآخر لمحاربة أسطول البندقية التي أعلنت الحرب على البحرية العثمانية، فقد من جرائها الأسطول الجزائري مع الأسطول التونسي كل سفنهما[9].

7.1- توتر العلاقات الجزائرية الفرنسية على الرغم من الاتفاقية المبرمة منذ سنة 1629م، إذ أصبحت السفن الجزائرية تتعرض للمضايقة من نظيراتها الفرنسية، حيث تم الاعتداء على بعضها، ولم يسكت البحارة الجزائريون عن هذه السلوكات العدوانية حيث قاموا بمعاملة السفن الفرنسية بالمثل، الأمر الذي أدى إلى تطور الأحداث حتى بلغت العلاقات درجة التأزم، ذلك أن حكومة الجزائر أقدمت على أسر القنصل الفرنسي ريكو (Ricou) وبعض الرعايا الفرنسيين المقيمين بالجزائر، في حين قم الرياس بالإستيلاء على السفن الفرنسية وأسر كل من عليها، وهكذا تأثرت العلاقات بين الدولتين بسبب مصالح شخصية أدت بصاحبها إلى حتـــفه على أسوار مدينة طبرقة التونسية جزاء على أطماعه عام 1633م، وقـــد بلغت خسائر الفرنسيين سنة 1636م الذروة، عندما أسر لهم الجزائريون أكثر من 700 شخص، مما أدى بهم إلى التفكير في مهاجمة الجزائر مرة أخرى[10].

تحرك الأسطول الفرنسي بإمرة قائده "دي سوردي" كما أسدى تعليماته للسفن الأوربية على السواحل الإيطالية كسردينيا، بروفانس، صقلية وغيـــرها، بضرورة ملاحقة السفن الجزائرية أينما

كانت، وكان رئيس الوزراء "ريشيليو" من أكبر المتحمسين لذلك. إن هذا التحرك لم يكن بالأمر الهين من حيث المخاطر المحتملة و التكاليف المادية لإنجاح الحملة، ومهما كانت هذه الظروف فقد استطاع ريشيليو أنْ يجهز أسطولا بحريا لتنفيذ مخططه؛ وقد أقلع الأسطول متجها نحو الجزائر بقيادة الأسقف البحار دي سوردي، وفي طريقه استولى على العديد من القطع البحرية الجزائرية، ولم يصل إلى الجزائر إلا في السنة الموالية حيث رسا قُبالة ساحل المدينة مهددا الباشا بقصفها ويذكر أنه حصل على بعض الترضيات، على أنه لم يلحق أضرارا بالمدينة[11]. إن قطع العلاقات بين الطرفين كانت تؤدي في كل مرة إلى توقف الحركة التجارية بينها فنسبة كبيرة منها كنت تتم من بايليك الشرق، ما سنعكس سلبا على سكان المنطقة.

2. الأسباب:

1.2 تزايد ظلم العثمانيين في الجزائر:

سجلت العديد من مظاهر الظلم والعدوان على الجزائريين في أنحاء البلاد، ويذكر أنّ ظلمهم قد بلغ حدا لا يطاق في حاضرة تلمسان؛ إذ أدى بالسكان إلى الخروج من المدينة واللجوء إلى أحد المرابطين، على أنّ هذه الحوادث كانت قد بدأت منذ سنة 1627م وبقيت لسنوات[12]. ولابد من أنّ المظاهر نفسها والسياسة ذاتها قد انتهجت في بايليك الشرق الذي شهد هذه الثورة.

2.2 تحطيم مؤسسة الباستيون:

في عام 1638م كانت مؤسسة الباستيون قد تم تحطيمها نظرا لعدم احترام الفرنسيين للشروط المتفق عليها بشان إدارة هذه المؤسسة، نتج عن ذلك توقف عمليات شحن القمح لهذه المؤسسة ومن ثم لميناء مرسيليا، ما أدى إلى تذمر السكان وخاصة منهم المنتجين لهذه المادة، حينما بارت تجارتهم، كما أنّ الضرائب التي كانت تدفعها المؤسسة إليهم توقفت هي الأخرى، وأصبحوا في الأخير غير قادرين على دفع الضرائب المفروضة عليهم هم كذلك. وهذا الأمر المستجد لم تكن السلطة بمدينة الجزائر لتسمح به[13].

3.2 تزايد نفوذ زعماء القبائل:

كانت سلطة مراد باي (1622-1637م)، محدودة جدا في البايليك بسبب نفوذ شيوخ القبائل المحلية، وما زاد هؤلاء سطوة هو التقارب الكبير بينهم وبين الأجانب وخاصة التجار والقائمين على المؤسسات الاقتصادية الفرنسية في كل من القالة، عنابة القل وجيجل. وقد علم الباي من خلال جواسيسه لتلك الدسائس التي كانت تحاك ضده من قبل هؤلاء الشيوخ[14]. الأمر الذي يفسر بأن سلطة الباي لم تكن في مستوى تطلعات باشاوات الجزائر.

4.2 رفض قبيلة الحنانشة أداء ما عليها من الضرائب:

التفت القبيلة حول شيخها خالد بن نصر [15]، كما ذكرنا ذلك سابقا، وأعلنت رفضها التام لدفع الضرائب للسلطة العثمانية[16]، وعلى ما يبدو أنها هي الأخرى تضررت من هدم مؤسسة الباستيون فضلا على أنّ مضاربها على التخوم بين الإيالتين الجزائرية والتونسية جعل منها قبيلة ذات أهمية لا يمكن تجاهلها لاسيما وأنها تتحكم في المنافذ بين الايالتين، وبالتالي التحكم في التجارة و كذا حدود الرعي. وقد حاول كل من بايات قسنطينة وبايات تونس على إقحامها في الصراع الدائر بينهما[17].

5.2- مقتل شيخ العرب مُحَّد بن الصخري:

من بين أسبابها أنها كانت أسباب شخصية تعود إلى أسرة بوعكاز الذاوودة[18]، هذه الأسرة التي كان لها وزن بين القبائل بالبايليك إذ كانت تسيطر على جنوبه أي منطقة الصحراء وعليه كانت مستقلة داخليا، ولم يتسن للعثمانيين الاستيلاء على مضاربها واكتفوا بما كانت تدفع هذه القبيلة من ضرائب سنوية كرمز للولاء.

وفي سنة 1637م، حاول الباي مراد أن يزحف على مضارب القبيلة وكسر شوكتها، وكانت أول خطوة له في هذا الاتجاه عندما أمر بالقبض على شيخ العرب مُحَّد بن الصخري وبعض من أعيان القبيلة وأودعهم السجن. لما أدوا عليهم من الضرائب لدى أعوانه، وكان قد أرسل إلى داي

الجزائر يخبره بأنه تم القبض على شيخ العرب ويطلب منه منحه الإذن لقتله بحجة أنه متمرد ويخطط للانفصال عن السلطة المركزية، وبدوره داي الجزائر منح له الإذن للتخلص من الشيخ ومرافقيه وفي يوم الأربعاء 1صفر 1047هـ/جوان1637م، تم إعدام الشيخ وابنه ومرافقيه. ويذكر أن رؤوس هؤلاء قد علقت بمدخل مدينة قسنطينة عبرة للقبائل الأخرى.

3. انطلاق الثورة:

بعد أن ذاعت أنباء مقتل شيخ العرب مُحَّد بن الصخري والوفد الذي رافقه إلى الباي مراد في أوساط قبيلة الذواودة، استشاط أخ المغدور مُحَّد وهو أحمد بن الصخري، وأفراد عائلة بوعكاز، حيث أعلن الثورة ضد العثمانيين ومن يمثلهم على رأ س البايليك وهو الباي مراد[19].

في مطلع سنة 1638م،زحف أحمد بن الصخري بجيش على مدينة قسنطينة، وفي الآن نفسه اعلن خالد بن نصر زعيم عائلة الحنانشة، التي لها سطوة في هذه المنطقة، للأسباب التي أوردناها سابقا، بجيشه هو الآخر على المدينة قاصدا الباي مراد، وقد عمد في بادئ الأمر إلى طرد الحاميات العثمانية الموجودة بالمناطق التي يسيطر عليها، وفي خطوة ثانية جاب ساحل البايليك من أجل كشف أي محاولة للعثمانيين للإنزال بالساحل والإطباق عليه، وكان من جراء ذلك قد شتت شمل عدة قبائل على رأسها قبيلة أولاد ذياب وأولاد نهد الذين يحسبون على العثمانيين، كما طرد فلول قبيلة دريد التونسية إلى مضاربها بتونس.

ولما ذاعت أخبار الثورة وجد المناوئون للحكم العثماني بالبايليك الفرصة سانحة لإعلان الثورة هم كذلك، حيث انضمت إلى خالد بن نصر فروع العديد من القبائل بالمنطقة وأشهرها قبيلة فليسة، وهكذا دخل على خط الثورة ثلاثة شخصيات لها تأثير كبير مما أعطى للثورة قوة ستدوم من خلالها بضع سنوات وستنتشر في مناطق واسعة من البايليك، خلافا لأحمد بن الصخري وخالد بن نصر هناك بتقة بن ناصر زعيم عائلة المقراني، إن اتحاد هذه القبائل جعل القوات العثمانية بالمدينة محاصرة من كل الجهات تقريبا[20].

أورد المؤرخ الفرنسي شارل فيرو عن هذه الثورة « بعد قتل المذكورين جهز أخو الهالك المذكور وهو أحمد بن الصخري جميع الأعراب والحنانشة وغيرهم من ساير الرعية كائنا من كان من باب الجزائر إلى باب تونس وغار على دار السلطان وقصد بزمالته المذكور بلد قسنطينة وخرج أهل البلد لقتاله فغشيهم بخيله ورجاله وقتل منهم نحو خمسة وعشرين رجلا فخرجوا إلى البلد مكسورين وفي غد ذلك اليوم فزع بخيله ورجاله للفحص الأبيض والحامة وتلك النواحي و أطلق النار في نوادر القمح والشعير فاحرقها عن آخرها وأحرق ما فيها من الدشر حتى انتهى الحرق إلى جنة المنيا، و أطلق النار من نواحي أخرى ومن الغد وهو اليوم الثالث أطلق النيران من قسنطينة إلى أن انتهى بحفرة صنهاجة ولم يزل يحرق وينهب ومهما سمع بدشرة بها شيء من الزرع نهبه»[21].

ويخبرنا صاحب الوثيقة أيضا بأن جيش الباي مراد لحقت به خسائر كبيرة أثناء المعارك التي دارت بينه و بين الثوار الذين يكونون قد انسحبوا نحو الغرب، و بقي الباي حائرا أمام ما رأى من هول الصدمة ن لذا قرر إرسال وفد لباشا الجزائر يخبره بما يدل عليه الوضع، طابا منه النجدة ضد هؤلاء وقد شرح له الخطر الذي باتت تشكله هذه الاضطرابات، و وبسرعة لبى الباشا طلب الباي وأرسل فرقا من الجيش قوامها 4000 رجل الأول بقيادة القائد يوسف، والثانية بقيادة القائد شعبان التي انضمت إلى قوات البايليك حيث بلغ تعدادها 6000 رجل[22].

انطلقت القوات العثمانية صوب الثوار الذين قدر عدد قواتهم بحوالي 10000رجل التقى الجمعان في منطقة كجال الواقعة بين قسنطينة وسطيف وكان هجوم الثوار هجوما عنيفا اكتسح معسكر قوات العثمانية إذ تكبدوا خسائر معتبرة وكان من بين القتلى كاتب الباي، أما الأخير فقد فرّ من ساحة المعركة و لم يتم القبض عليه[23].

غنم الثوار أسلحة المحلة العثمانية وكل المؤن التي كانت بحوزتهم، أما الباي الذي اتجه صوب مدينة الجزائر لم يصلها ولم يعد كذلك لقسنطينة خوفا من مصير مجهول ينتظره من طرف الباشا، يذكر أنه تمت مفاوضات بين القائد العثماني يوسف والثوار، حيث ناور القائد هؤلاء بتسليمهم الباي مقابل التخلي عن الثورة وكانت هذه الخطة قد نسجت في ديوان الجزائر بغية الاستيلاء على

أموال الباي التي ذكر بأنها كانت ضخمة، وبفضل عيون له في الديوان و الأموال التي دفعها لما تمكن من الإفلات من قبضة العثمانيين والثوار على حد سواء[24].

لم يعثر على خبر للباي مراد بعد الموقعة، عدا تلك الإشارات التي تقول بأنه توفي في المعركة في غضون شهر جوان 1639م[25]. وبعد الهزيمة النكراء التي حلت بالقوات العثمانية، انتشرت الثورة في كل أنحاء البايليك بل أن ثورات ثلاث شكلت ثورة واحدة لأنها في منطقة واحدة وكانت قد سيطرت على طريق المحلة الرابط بين مدينة الجزائر وعاصمة البايليك، الأمر الذي هزّ كيان باشا الجزائر وسارع إلى اتخاذ إجراءات والتحرك ضد هذه القبائل التي تواصل ثورتها، لذا نجده قد حشد قوات كبيرة لاجتثاث مكامن الثورة والقضاء عليها نهائيا، وكان أول ما بدأ به هو مهاجمة مضارب قبيلة فليسة القريبة من مدينة الجزائر. بيد أن هذا التحرك باء بالفشل وكادت أن تُباد قوات الباشا، ويذكر أن أحد المرابطين كان قد تدخل وفرض على الثوار قبول الهدنة بشروطهم، وتم الاتفاق على ما يلي:

أ- تخلي الباشا على مطالبة الثوار بضريبة اللزمة.

ب- عودة القوات العثمانية من حيث أتت والتعهد بعدم العودة ثانية.

ت- التعهد بإعادة بناء الباستيون وكل ملحقاته التي هدمت وعطلت عملها.

ث- السماح للكراغلة بالعودة إلى مدينة الجزائر ومنحهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها قبل ثورتهم.

بعد التوقيع على شروط هذه الاتفاقية يذكر أن القوات العثمانية بدأت في الانسحاب نحو مدينة الجزائر تحت حراسة من طرف المرابط الذي كلف نفسه بتأمين تحركها على خط العودة وهو المرابط نفسه الذي سهر على رأب الصدع بين المتحاربين، و بذلك عاد الأمن والاستقرار لهذه المناطق التي تشرف عليها الأسر المحلية الحاكمة[26]. وبعد نهاية هذه الاضطرابات الأولى وبالرغم من عودة الأمن والاستقرار ولو نسبيا لربوع البايليك إلا أنّ منصب الباي ظل شاغرا في غياب الباي مراد، الأمر الذي لم يستصغه الكثير من عقلاء المدينة لاسيما وأنهم يعرفون تمام المعرفة بأن الباشا

لن يسكت وسيعيد الكرة سواء هذا إن بقي في منصبه أو لا. وعليه تم الاتفاق على إرسال الشيخ عبد الكريم بن الفكون لمدينة الجزائر من أجل طلب الباشا بخصوص تعيين باي جديد على رأس البايليك[27].

وما يجب ذكره أن هذه الاضطرابات كثيرا ما كانت سببا في تغير حكام الجزائر، و بالفعل ذلك ما حصل فقد تم تنحية الباشا وإعادة تنصيب الباشا يوسف سنة 1640م[28]، الذي كان عازما على مجابهة الثوار وإعادة الأمور إلى سابق عهدها، من أجل تفادي غضب السلطان العثماني إنْ هو أخفق مرة أخرى. وفي خطوة أولى سعى إلى التقرب من أعيان وكبار شيوخ القبائل وكذا المرابطين خاصة لما شاهد النفوذ الكبير الذي كانوا يتمتعون به، وبادئ ذي بدء كان قد أرسل كتابا لمفتي عنابة الشيخ مُحَمَّد الساسي البوني في شهر ذي الحجة 1050هـ/ مارس1641م، شرح له فيه أنه أجل الحملة التي كان يعتزم توجيهها ضد الاسبان في مدينة وهران ويدعوه من جهة إلى مؤازرته في إعادة الحكم العثماني للبايليك قائلا:"... الماد إعلامكم أنا كنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران واستخلاصها من أيدي حزب الشيطان، وإنقاذها من من ورطة الكفر والظلال...، حتى عرض لنا ما بيننا وبين هذا الغرض...، فتركنا مكنون العزم الجهادي في صدفه، وأخذناه إلى أن يحل بدر ظهوره...، ورأينا بصائب النظر وما أوجبته صحائف الأثر، على تقديم الأهم فالأهم...، فجردنا العزم بحسب ما اقتضاه الحزم...، بأن نتوجه نحو قسنطينة ومن إليها وبعدها إن شاء الله بسكرة ومن لديها لامعان النظر في مصالح الرعايا وإخماد نيران الفتنة ودفع البلايا...، ورأينا أنه لا ينجى مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه، إلا أن نباشر ذلك من أمور خلقه، إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا، ...، وكاتبناكم بجميع هذا..، ولتخبروا من هنا لكم بالمرام،...، فلتخولوا الخاصة والعامة بالذكرى والموعظة الحسنة..."[29].

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد راسل الباشا يوسف العديد من المشايخ والعلماء منهم مفتي مدينة الجزائر "سعيد قدورة" وعبد الكريم بن الفكون وغيرهم، راجيا منهم مساعدته، وبعد أن وثق بهؤلاء من خلال الرسائل التي تلقاها، عزم الأمر على التحرك ثانية وكان قد اتخذ من البحر طريقا لجزء من القوات التي سار على رأسها خشية الإطباق عليه في البر خاصة وأن الطريق كانت

تحت سيطرة الثوار كما أشرنا إلى ذلك سابقا، بيد أن ذلك لم يمنعه من إرساء جزء آخر عن طريق البيبان وبرج حمزة، ولما وصل إلى مدينة قسنطينة قادما إليها من عنابة التي نزل بها قلد أعيان المدينة الحكم ومن بينهم الشيخ عبد الكريم بن الفكون[30] .

4. نتائجها:

– قيام اضطرابات في مدينة قسنطينة بعد أنْ وضعت الحرب أوزارها في جنوب البايليك، إذ ثار هذه المرة أولاد عبد المؤمن الذين كانوا يتمتعون بقدر وافر من السلطة والجاه في المدينة، في يوم12 أكتوبر من سنة 1642م، ضد الحامية االعثمانية القريبة من مكان سكناهم بعد أن تعرضوا على يد جنود منها إلى التعنيف والاهانات المتكررة، وكانت قد دارت بين الطرفين معارك ضارية بالسلاح، وظلت شوارع المدينة مسرحا لها طيلة يومين كاملين، نجم عنها تراجع الثائرين الذين حاصرهم الجنود في سكناهم، عندها تدخل بعض العقلاء يتقدمهم شيخ البلد وشيخ الإسلام للتفاوض مع قائد الجنود، وتم على إثر ذلك وضع حد لهذه الاضطرابات، التي كانت قد أسفرت على مقتل 24 رجلا من أولاد عبد المؤمن أما الجنود العثمانيين كان قد وقع في صفوفهم ضحايا يجهل عددهم. وهكذا انسحب الجنود وعاد الأمن للمدينة[31].

– تعطل بعض من مظاهر الحياة في الجزائر، إذ يصف لنا مُحَّد بن راس العين الأندلسي حالة الجزائر في ظل أحداث هذه الثورة بقوله"... والآن ضعفت الرعية، فعظمت البلية، وحلت الرزية، وضاق المعاش، لما كثرت الأوباش، وضاعت الفقراء، إذ حارت الأمراء، وعظم الخطب، وتضاعف الكرب، ونغص العيش طاغية من طواغي البادية، فعظم الخطب، وحلت الداهية.."[32]. ويلاحظ من خلال هذا الوصف أن الأوضاع الاجتماعية في الجزائر العثمانية عامة و بايليك الشرق خاصة كانت حرجة للغاية أثناء الثورة، التي زادت الأمور تعقيدا .

– كانت ثورة ابن الصخري هي بداية لانتفاضات متتالية ضد العثمانيين ببايليك قسنطينة، فقد تلها ثورات أخرى كنا قد ذكرنا منها ثورة أولاد عبد المؤمن، وفي بداية سنة 1943م، انتفض أفراد من عائلة المقراني في البيبان بمنطقة مجانة تحديدا وكذا مناطق أخرى مثل سطيف، ولما وصلت

أنباء ثورتهم عزم باشا الجزائر على محاربتهم فأرسل إلى الباي يوسف الذي انطلق على رأس قوة عسكرية من قسنطينة، كما أمر قائد فيلق زمورة وفيالق أخرى من التيطري بضرورة الالتحاق بجيش الباشا المتوجه إلى عين المكان حيث الثوار مجتمعون، وكانت قد اندلعت بينهم معارك ضارية من أماكن متفرقة، وأبدى الثوار دفاعا مستميتا على قلة عددهم وضعف تسليحهم، ولم يستسلموا للأمر الواقع ما اضطر قائد القوات العثمانية إلى الرضوخ لأمرهم ، وجرت بينهم اتصالات تعهد فيها الأخير على إلغاء الضرائب المفروضة على عامة السكان وبعث التجارة من جديد وتأمينها بين الإقليم و مدينة الجزائر أو مناطق أخرى من البلاد[33] .

– تدهور الأوضاع العامة في البايليك، عندما ساد الجفاف وانتشرت المجاعة وظهرت الأوبئة، وارتفع ثمن الغذاء، وعليه كان البايليك في وضع خطير، ولم يستطع الباي ولا رجاله التحكم في زمام الأمور، حيث أصيب الباي بمرض ألزمه الفراش حتى توفي سنة 1647م[34]، بيد أنّه هناك من يقول بأنه فرّ من المعارك السابقة ولم يعثر له على خبر.

– تم إبرام اتفاقيات بين الثوار والسلطة العثمانية بمدينة الجزائر تقضي بضرورة وضع الثقة في شيوخ العرب الممثلين للقبائل والاعتراف بسلطة باي قسنطينة الذي سيعين لاحقا، كما تم وضع التشريفات والمراسيم عند تولية شيوخ العرب من قبل الباي لكي يضفي عليه الشرعية اللازمة، وتضمن الاتفاق على أنْ يكون الحكم في مدينة قسنطينة وأحوازها للباي، أما سلطة قبيلتي الذواودة والحناشنة فتكون شرقي البايليك وجنوبه، أما غربه فيبقي لأسرة المقراني[35] .

– توصل فرنسا غلى عقد اتفاقية مع الجزائر في ظل الأوضاع المضطربة عندما استغلوا هذا الظرف، وتم التوقيع عليها في سنة 1640م[36]، كما أقدم رئيس الوزراء الفرنسي "مازران" على منح القنصلية الفرنسية بالجزائر لرجال الدين بعد أنْ كانت بيد رجال الأعمال، مما سيضفي على العلاقات بين البلدين مستقبلا التعصب الديني بدل التفاهم السياسي والتبادل التجاري[37] .

– إقدام السلطة العثمانية بالجزائر على بناء الأبراج والحاميات في المناطق التي ظلت مستعصية عليهم وتم الوصول إليها في هذه الثورة، أو تلك التي شهدت اضطرابات في الثورات الأخيرة مثل برج تيزي وزو سنة 1640م، والذي أمر ببنائه الداي علي باشا[38].

– بروز مكانة ضباط الانكشارية وعناصر الجيش الذين خاضوا هذه المعارك، حيث أصبحت لهم دراية كبير بتقاليد الحكم العثماني في الجزائر مما فسح لهم المجال بتولي دفة الحكم في الايالة.

–اهتزاز مكانة الباشاوات إذ كانت هذه الثورة مقياسا حقيقيا لهم في إدارة أمور البلاد، حيث ألقت هذه الثورة بضلالها على السنوات المتبقية من عهد الباشاوات الذي سينتهي مع نهاية العقد السادس.

– تخلي باشا الجزائر عن الحملة التي كان يرغب في توجيهها ضد الإسبان في مدينة وهران سنة 1641م، ويجب ذكره أنّ تأجيل الحملات لم يكن الأول فقد سبق وأن أجلت حملات مماثلة لأسباب تكاد تكون في إطار اضطراب الأوضاع الداخلية في البلاد آو ظهور خطر أجنبي موازي، كما حدث في عهد صالح رايس قبل قرن من الزمان تقريبا.

خاتمة:

يعد العقد الرابع من القرن السابع عشر عقد الثورات ضد حكام الجزائر العثمانية، وهم الذين ضنوا أنهم قد تمكنوا من طي سلسلة الخلافات مع فرنسا بعد التوتر الذي شاب العلاقات طيلة العقد الفارط، وترسيم اتفاقية معها بنهايته، إن توالي اشتعال الثورات لأمر يدل على هشاشة الحكم العثماني في هذه المرحلة، نظرا للشروط التي اعتمدها الباب العالي في تولية هؤلاء. وما يجب ذكره أنّ علاقة العثمانيين بالجزائريين كانت محدودة جدا لاسيما في السماح لهم بالجندية خشية التمرد على سلطتهم، إذ تبين أن هذا الإجراء عديم الفائدة، فهاهي الثورات ما تفتأ تعلن في كل مكان. ولم يتعض العثمانيون منها، الأمر الذي ستكون له تداعيات خطيرة على مستقبل الإيالة ليس فقط عل المدى القريب بقيام ثورات مشابهة كثورة ابن الأحرش والدرقاوي والتيجانية، بل حتى عند دخول جيش الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر وترك الجزائريون حينها الجيش الانكشاري

يواجه مصيره بمفرده، في حين كان حمودة باشا الحسيني في تونس قبيل سنوات من احتلال فرسا للجزائر قد اعتمد في تكوين جيشه على العناصر المحلية، وبدا جيشه أحسن بكثير مما كان عليه.

قائمة المراجع:

المجلات:

1- بلبروات بن عتو، أضواء حول مدينة تلمسان خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد1، جامعة سيدي بلعباس2009م

2- عطية مُحَّد، الظروف المحيطة بنكبة الأسطولين الجزائري والتونسي في فالونا 1638م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد55- 56، تونس 2017م.

3-يعقوب خديجة وقشي فاطمة، الرزقي بن منصور شيخ قبيلة الحنانشة 1826-1848م، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية و التاريخية، مج9، عدد1، جامعة معسكر جوان 2018م، الجزائر 2018م.

4-Berbrugger Adrianne, Notes relatives à la révolte de Ben Sakheri, , **R.Af**, n°10, 1866.

5-Féraud Charles, époque de l'établissement des Turcs a Constantine, **R.Af**, n°10, 1866.

الكتب:

1- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة، الجزائر2013م.

2-ابن العنتري مُحَّد الصالح، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها(تاريخ قسنطينة)، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر 2009م.

3-ابن الفكون عبدالكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق ابوالقاسم سعدالله، ط1، دار الغرب الاسلامي،بيروت1987م.

4- بلانتي أوجين، مراسلات دايات الجزائر إلى ملوك ووزراء فرنسا(1579-1700م)، ترجمة سلامنية بن داود وآخرون، ج1، ط1، درا الوعي، الجزائر2014م.

5- بوعزيز يحي، بوعزيز يحـي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوربا 1500م - 1830م، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر2009م.

6- بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، دار عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م.

7- حرز الله مُحَمَّد، منطقة الزاب قرن من المقاومة(1830-1930م)، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م.

8- حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي، تحقيق فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجوائر2009م.

9- سامح عزيز ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت1989م.

10- سعد الله أبو القاسم، أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة، مجلة الثقافة، العدد51،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1979م.

11- مروش لمنور، أبحاث ودراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة بين الأساطير و الواقع، ج2، دار القصبة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م .

12- معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايليك الشرق الجزائري(ق10-13هـ-16-19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2014م.

13-هلايلي حنيفي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر2007م.

14- وولف جون ب، الجزائر وأوربا 1500- 1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر2009م.

الرسائل الجامعية:

1- العزيزي مُحَّد، ظاهرة الحكم المتجول في المغرب العربي الحديث، المحلة التونسية أنموذجا، أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائلر2007م.

2- مبارك فاهيمة، بلاد زواوة في ظل الحكم العثماني 1511-1830م، مذكرة ماجستير، غير منشورة، جامعة الجزائر2015/2016م.

الهوامش:

[1] هلايلي حنيفي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر2007م، 128.

[2] وولف جون ب، الجزائر وأوربا 1500- 1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر2009م.، ص ص130-131.

[3] ابن الفكون عبدالكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق ابوالقاسم سعدالله، ط1، دار الغرب الاسلامي،بيروت1987م، ص167

[4] بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، دار عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م.ص38.

[5] سامح عزيز ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت1989م، ، ص ص356-357.

[6] مروش لمنور، أبحاث ودراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة بين الأساطير و الواقع، ج2، دار القصبة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م، ص265.

[7] سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص362.

[8] بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص38.

[9] عطية محمد، الظروف المحيطة بنكبة الأسطولين الجزائري والتونسي في فالونا 1638م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد55- 56، تونس 2017م، ص ص273- 286.

[10] بوعزيز يحي، بوعزيز يحـي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوربا 1500م -1830م، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر2009م، ص ص 70- 72.

[11] وولف جون، المرجع السابق، ص ص289-290.

[12] بلبروات بن عتو، أضواء حول مدينة تلمسان خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد1، جامعة سيدي بلعباس2009م، ص76.

[13] سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص364.

[14] ابن العنتري محمد الصالح، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها(تاريخ قسنطينة)، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر 2009م، ص36.

[15] قبيلة ضخمة تتكون من اثنا عشر بطنا، تمتد مضاربها على طول التخوم الجزائرية التونسية، بقيت تحت سلطة العثمانيين بالجزائر من خلال رقابة باي قسنطينة، كان موقع سكناها محل تنافس بايات قسنطينة وبايات تونس فكثيرا ما دخلت في الصراع بين القوتين في إطار الصراع المرير بين الايالتين الجزائرية والتونسية. ينظر: العزيزي محمد، ظاهرة الحكم المتجول في المغرب العربي الحديث، المحلة التونسية أنموذجا، أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائلر2007م، ص130.

[16] سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص364.

[17] 17 معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايليك الشرق الجزائري(ق10-13هـ-16-19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2014م، ص276.

[18] عائلة بوعكاز تنتمي لعرش الذواودة، وهي أحد بطون قبيلة رياح الهلالية،جدهم الأول هو مرداس بن رياح، استوطنوا منطقة الزاب بالمغرب الأوسط وبقوا فيه مع أنهم انتشروا في مناطق أخرى من الجزائر العثمانية ومنهم من هاجر وسكن بابليك التيطري، وكانت العائلة قد اضطلعت بأمور الحكم منذ أن ضم العثمانيون الإقليم الشرقي للجزائر، إذ تم منح أحد أفرادها القيادة، وقبل قرن من الزمن بالضبط كان علي بوعكاز الصخري قد تقلد منصب شيخ العرب ومنذ ذلك الحين أصبح للعائلة شأن كبير أهلها فيما بعد إلى إعلان التمرد ضد العثمانيين أنفسهم. ينظر: حرز الله محمد، منطقة الزاب قرن من المقاومة(1830-1930م)، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م، ص ص 59- 60.

[19] معاشي جميلة، المرجع السابق، ص339.

[20] المرجع نفسه، ص340.

[21] Féraud Charles, époque de l'établissement des Turcs a Constantine, **R.Af**, n°10, 1866,pp 179-196.

[22] Op, Cit, p183.

[23] Berbrugger Adrianne, Notes relatives à la révolte de Ben Sakheri, , **R.Af**, n°10, 1866, pp337-352.

[24] Op, Cit, PP343-344.

[25] معاشي جملية، المرجع السابق، ص342.

[26] المرجع نفسه، ص343.

[27] المرجع نفسه، ص344.

[28] من ابرز باشاوات الجزائر في هذه الفترة العصيبة، وكان قد حكم لثلاث فترات بسبب الاضطرابات التي شهدتها الجزائر ، في حين يدل ذلك على قوة هذا الرجل وحسن تدبيره الأمر الذي جعل السلطة بمدينة الجزائر تستنجد به عدة مرات، وهذه الوضعية قلما حدث مع حكام الجزائر أذ حدث الأمر نفسه مع حسن باشا بن خير الدين في القرن الماضي، وعلى أية حال فالفترة الاولى التى حكم فيها كانت مابين 1634-و 1637م، ثم الفترة اثانية مابين سنتي1640-1642م، ثم المرة الثالثة والأخيرة عين سنة 1647إلى غاية 1650م. ينظر: حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي، تحقيق فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجوائر2009م، ص ص50-52.

[29] سعد الله أبو القاسم، أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة، مجلة الثقافة، العدد51،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1979من ص ص 21-22.

[30] معاشي جميلة، المرجع السابق، ص345.

[31] ابن العنتري ، المصدر السابق، ص38

[32] ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة، الجزائر2013م، ص ص62-63.

[33]ابن العنتري ، المصدر السابق، ص39.

[34] المصدر نفسه، ص39.

[35] يعقوب خديجة وقشي فاطمة، الرزقي بن منصور شيخ قبيلة الحنانشة 1826-1848م، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية و التاريخية، مج9، عدد1، جامعة معسكر جوان 2018م، الجزائر 2018م، ص314.

[36] بلانتي أوجين، مراسلات دايات الجزائر إلى ملوك ووزراء فرنسا(1579-1700م)، ترجمة سلامنية بن داود وآخرون، ج1، ط1، درا الوعي، الجزائر2014م، ص ص225-233.

[37] وولف جون، المرجع السابق، ص297.

[38] مبارك فاهيمة، بلاد زواوة في ظل الحكم العثماني 1511-1830م، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر2015/2016م، ص105.